الفصل الثالث

الموجة الرابعة للتحول الديمقراطى

obeikan.com

obeikan.com

إذا كان الحديث عن الموجة الثالثة للديمقراطية ارتبط باسم «صمويل هنتنجتون ـ Samuel Huntington» فإن الحديث عن الموجة الرابعة للديمقراطية يرتبط بأسماء عديدة فى مقدمتها «مايكل ماكفول ـ Michael McFaul». الأخير ينتمى إلى الحزب الديمقراطى، وهو مدير معهد «الديمقراطية والتنمية وحكم القانون ـ CDDRL» بجامعة «إستانفورد ـ Stanford»، التى يعمل فيها أستاذا مساعدا للعلوم السياسية، بجانب عمله زميلا فى كل معهد «هوفر ـ Hoover» الشهير بجامعة إستانفورد و«مؤسسة كارنجى ـ Carnegie». ويتوقع كثيرون أن يتحول هذا الباحث النابه إلى سياسى يعمل فى الإدارة الأمريكية فى حال وصول الحزب الديمقراطى للحكم فى الانتخابات الرئاسية المقبلة. ومن المعروف أن جامعة إستانفورد تضم باحثين جمهوريين وديمقراطيين على السواء. وكوندوليزا رايس كانت أستاذا فى العلوم السياسية بهذه الجامعة، وزميلا بمعهد هوفر قبل أن تنتقل للعمل فى الإدارة الجمهورية الحالية، ومن غير المستبعد أن تخوض الانتخابات المقبلة نائبة للرئيس الأمريكى فى مواجهة هيلارى كلينتون التى يتردد أنها قد تخوض المنافسة على هذا المنصب.

يرى هنتنجتون أن العالم مر بثلاث موجات للديمقراطية: الأولى استمرت من (١٨٢٨ ـ ١٩٢٦م)، والثانية من (١٩٤٣ ـ ١٩٦٤م). تبع كل موجة ردة قلصت عدد الدول التى تحولت بالفعل إلى المعسكر الديمقراطى، ولكن إجمالا فإن عدد الديمقراطيات التى خلفتها كل موجة أكثر من عدد الديمقراطيات التى كانت قائمة عند بدايتها، وهو الأمر الذى دفع باحثًا مهمًّا فى مجال الديمقراطية هو «لارى دايموند ـ Larry Diamond» للحديث عما أسماه تعزيز الديمقراطية فى البلدان التى جرى بها تحول ديمقراطى فى سياق الموجة الثالثة التى بدأت فى إبريل ١٩٧٤م مع إسقاط الحكم العسكرى فى البرتغال، ووضع أطروحة مهمة لذلك.

نعود إلى مايكل ماكفول الذى قضى شطرا من حياته البحثية فى دراسة التحول الديمقراطى فى دول المعسكر الشيوعى سابقا، وحاول من خلالها أن يطرح ما يمكن أن نطلق عليه «نموذج الموجة الرابعة للتحول الديمقراطى»، وهو نموذج استقاه من نمط التحول فى بعض الدول السابقة مثل: صربيا وسلوفاكيا وكرواتيا وچورچيا وأوكرانيا، وسعى لتحديد نموذج للتحول الديمقراطى، له اشتراطات محددة، انتفاء أحدها أو كلها قد يجعل التغيير الديمقراطى «شبه مستحيل». إذن هذا النمط من التحول الديمقراطى ـ فى تصور ماكفول ـ هو «نموذج» قابل للتعميم طالما توفرت اشتراطاته.

التهجين السياسى

الافتراض الضمنى الذى يستند إليه نموذج مايكل ماكفول هو الذى انتهى إليه «كارل جيرشمان ـ Carl Gershman» ـ رئيس الوقفية الوطنية للديمقراطية NED ـ من أن الموجة الثالثة للتحول الديمقراطى خلفت وراءها «أنظمة سياسية مهجنة ـHybrid Regimes» تحمل فى طياتها بعض سمات الديكتاتورية والديمقراطية معا، فهى ديكتاتورية منفتحة، أو ديمقراطية مقيدة. من أبرز ملامحها: المسحة الشكلية الديمقراطية سواء فى إجراء انتخابات غير نزيهة، وجود أحزاب غير فاعلة، منظمات مجتمع مدنى تحت رقابة الدولة وأجهزتها، مؤسسات إعلامية حكومية، مستويات عالية من الفساد، برلمان ضعيف، سلطة تنفيذية طاغية ... إلخ. نموذج مايكل ماكفول يطبق ـ بسماته ـ فى حالة وجود «نظام سياسى مهجن ـ Hybrid» يعطى مساحات حركة لقوى المعارضة يمكن استغلالها فى تحقيق تحول ديمقراطى. من هنا فإن النظام الديكتاتورى القمعى ـ بمعناه المطلق ـ مثل: نموذج عراق صدام حسين، أو كوبا فيديل كاسترو، وإلى حد بعيد سوريا الأسد، لا يمكن أن يعرف هذا النموذج لعدم وجود شروطه الأساسية. هذه الأنظمة إما تصلح أمرها من داخلها، فتبدأ فى تحقيق قدر من الليبرالية السياسية، وبالتالى تدخل فى مصاف الأنظمة المهجنة سياسيّا، أو تظل على شموليتها وانغلاقها وتسلطها، ويصبح أمر تغييرها رهنا بالتحول من خارجها سواء كان فى شكل درامى عسكرى مثلما حدث فى العراق، أو فى شكل أزمة اقتصادية طاحنة تخلخل دعائم النظام، أو وفاة الشخص القابض على زمام النظام الحاكم.

إذن نموذج ماكفول له اشتراطات تتعلق جميعها بحالة نظام يتأرجح بين الديكتاتورية والديمقراطية، ويصبح الأمر يتعلق بترجيح كفة المطالبين بالديمقراطية فى مقابل الساعين إلى بقاء الديكتاتورية. وفى جميع الحالات التى بنى عليها الباحث نموذج التغيير لجأت قوى المعارضة إلى تفعيل الحقوق المنصوص عليها دستوريا، والاعتماد على قواعد اللعبة السياسية القائمة، بدلا من السعى لتغيير شروط «اللعبة السياسية».

اشتراطات النموذج

هناك عدد من الاشتراطات التى وضعها مايكل ماكفول لنجاح نموذج التحول الديمقراطى فى الموجة الرابعة.

١ـ نظام شبه قمعى

تعانى جميع الأنظمة القمعية بدرجات مختلفة من الترهل الذى قد يفضى إلى سقوطها... ولكن أى الأنظمة أكثر عرضة للتهاوى من غيرها؟ يرى ماكفول أنها «الأنظمة السلطوية التنافسية ـ Competitive Authoritarian»، أما الأنظمة كاملة الأهلية سلطويًّا فإن أمر خلخلتها يبدو أكثر صعوبة. من الأمثلة على هذه الأنظمة السلطوية التنافسية صربيا، چورچيا، أوكرانيا... إلخ. فى يوغسلافيا السابقة ـ على سبيل المثال ـ تولى سلوبودان مليسوڤيتش الرئاسة فى البداية فى صربيا، ثم فى الاتحاد اليوغسلافى بالانتخاب. وبينما كان يواصل حرب الإبادة العرقية، لم يكن ديكتاتورا كامل النمو. اضطهد المعارضة السياسية لكن لم يحظر وجودها. قمع الصحفيين وأصدر أوامر بتصفية بعضهم، لكنه فى الوقت ذاته سمح ببعض المنافذ الإعلامية المعارضة، مثل محطة راديو B-92، وقد ساعدت الانتخابات المحلية والتشريعية قوى المعارضة على الزحف إلى مؤسسات الدولة السيادية، واتخاذ موطئ قدم فيها. من هنا فإن العناصر الديمقراطية فى النظام سمحت بتحوله من الشمولية إلى الديمقراطية. وهو الأمر نفسه الذى تكرر فى چورچيا. فقد سمح الرئيس إدوارد شيفرنادزه بنشاط بعض المؤسسات الديمقراطية مثل واحدة من أكثر محطات التليفزيون تأثيرا وهى Rustavi-2

وعندما حاول أن يلجأ إلى القمع لم يتمكن من ذلك على نحو مطلق، ليس لأن القوى الديمقراطية تصدت له، ولكن أكثر من ذلك لأنه لم يكن يمتلك الموارد التى تمكنه من ذلك. وتكرر السيناريو نفسه فى أوكرانيا من خلال زحف المعارضة لمؤسسات السلطة بدءا من الانتخابات البرلمانية، والاعتماد على وسائل الإعلام الحديثة فى التعبئة.

٢ـ تلاشى شعبية رأس النظام

اشتراط ثان لحدوث تحول ديمقراطى درامى هو تلاشى شعبية رأس النظام، ووجود رغبة فى تغييره. تتعدد مظاهر تراجع شعبية القيادة السياسية القائمة. بعضها يعود إلى هزيمة عسكرية، أو إلى أزمة اقتصادية شاملة، أو تنامى الفساد. مثال على ذلك سلوبودان مليسوفيتش. فقد استطاع أن يحصد تأييد قطاعات شعبية واسعة فى عدد من الانتخابات الحرة النزيهة، إلا أن الهزيمة العسكرية التى منى بها على يد قوات حلف الناتو عام ١٩٩٩م، والتراجع الاقتصادى، قلّص من مساحة التأييد الشعبى التى كان يتمتع بها. الأمر نفسه ينطبق على إدوارد شيفرنادزه الذى تعرض حكمه لحملات من جانب الإعلام المستقل بشأن تنامى معدلات الفساد بحيث تحولت «النزاهة السياسية» إلى قضية أساسية فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٣م. يُضاف إلى ذلك عدم قدرة شيفرنادزه على تسوية عدد من المشكلات الحدودية. وفى أوكرانيا استطاع كوتشما Kuchma أن يحقق الفوز فى الانتخابات الرئاسية عامى ١٩٩٤ و١٩٩٩م، التى وصفت بأنها نزيهة نسبيا، وبلغ معدل التنمية الاقتصادية نحو ١٢٪ عام ٢٠٠٤م. ورغم ذلك فإن تنامى معدلات الفساد، واغتيال الصحفى جورجى جونجادز قلّص كثيرا من شعبيته، وكشف غياب شرعية كوتشما والمتحالفين معه.

٣ـ اتحاد المعارضة

توحد المعارضة هو العامل الثالث لتحقيق تحول ديمقراطى فى الأنظمة شبه السلطوية أو شبه الديمقراطية. فى حالات كثيرة كان المحفز الرئيسى لاتحاد المعارضة هو إحداث تغيير ديمقراطى. فى صربيا رغم الخلافات التى دبت بين قوى المعارضة طيلة التسعينيات من القرن الماضى، فى يناير ٢٠٠٠م، قررت القوى الديمقراطية إنشاء ما

عُرف باسم «المعارضة الصربية الديمقراطية». هذا التجمع استطاع الاتفاق على مرشح واحد لخوض الانتخابات الرئاسية هو «فويسلاف كوستنيكا ـ VojislavKostunica». فى هذا التوقيت كان كوستنيكا يرأس حزبا صغيرا هو «الحزب الديمقراطى لصربيا»، ولم يكن يتمتع سوى بحضور عام محدود. فى أوكرانيا لم يكن سهلا إبرام اتفاق بين القوى السياسية؛ نظرا لوجود «الحزب الاشتراكى» القوى الذى كان اتفاقه مع القوى الليبرالية صعبا. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك زعيم للمعارضة يخوض الانتخابات فى مواجهة الرئيس كوتشما. اللافت للنظر أن الأخير ساعد على نشوء جبهة معارضة ضده، وذلك بعد أن قام بإقالة رئيس وزرائه «ڤيكتور يوتشينكو ـ Victor yushchenko» الذى استطاع تحالفه المعروف باسم «أوكرانيتنا ـ Our Ukraine» أن يحصد ربع أصوات الناخبين فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٢م، وهو ما جعل هذا الرجل الذى يمتلك خبرة تقنية وسياسية يقف زعيما للمعارضة فى مواجهة يانكوڤيتش مرشح نظام الرئيس كوتشما فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤م.

٤ـ فريق مستقل لمراقبة الانتخابات

رابع عامل مهم فى تحقيق التحول الديمقراطى فى صربيا وأوكرانيا وچورچيا هو وجود مجموعات مستقلة لمراقبة الانتخابات. فى صربيا لعب «مركز الانتخابات الحرة والديمقراطية» فى كشف التزوير فى الانتخابات عام ٢٠٠٠م. وفى چورچيا تشكلت للغرض نفسه فرق من المراقبين المحليين والأجانب بلغ عددهم نحو ٨ آلاف شخص. هؤلاء استطاعوا كشف تزوير الانتخابات. أما فى أوكرانيا فقد لعبت «لجنة الناخبين الأكورانيين» دورًا مهمّا فى مراقبة انتخابات الرئاسة بمختلف مراحلها عام ٢٠٠٤م.

٥ـ عدد من المنافذ الإعلامية المستقلة

فى لحظة التحول الديمقراطى يجب أن تتوفر عدد من المنافذ الإعلامية التى تستطيع أن تنقل إلى المجموع الشعبى أنباء عن تزوير الانتخابات. فى صربيا لعبت هذا الدور محطة راديو B-92. يضاف إليها شبكة إعلامية تحمل اسم ANEM مكونة من عدة وكالات أنباء، وعدد من الصحف اليومية والأسبوعية المستقلة، ومحطة تليفزيون.

أسس هذه الشبكة شخصية مهمة هى Goran Matic أحد المؤسسين لمحطة راديو B-92. هذه الشبكة الإعلامية استطاعت أن تبث أخبار تزوير الانتخابات لقطاعات شعبية عريضة، مما أسهم فى اتساع نطاق المتظاهرين. فى چورچيا تمكنت محطة تليفزيون Rustavi-2 أن تقدم من خلال برنامجها الشهير 60-minutes نقدا للرئيس شيفرنادزه، وهى المحطة نفسها التى نشرت على نطاق واسع أنباء عن تزوير الانتخابات، ونقلت على الهواء مباشرة حركة الجماهير الهادرة فى الشارع ضد سرقة الانتخابات. فى أوكرانيا رغم وقوع وسائل الإعلام فى يد فئة أوليجاركية وثيقة الصلة بالرئيس كوتشما، استطاعت قوى المعارضة الوصول للجماهير بوسائل الميديا الحديثة مثل: الإنترنت، ورسائل التليفون المحمول. يضاف إلى ذلك قناة تليفزيونية صغيرة ــ سُميت فيما بعد القناة الخامسة ــ اشتراها أحد رجال الأعمال وثيقى الصلة بزعيم المعارضة ڤيكتور يوتشينكو.

٦ـ تعبئة الجماهير

العنصر السادس فى إحداث التحول الديمقراطى هو قدرة المعارضة على تعبئة الجماهير بأعداد ضخمة للنزول للشارع للتعبير عن رفض تزوير الانتخابات. فى الدول الثلاثة، صربيا وچورچيا وأوكرانيا، لعبت الحركات الطلابية حديثة التشكل دورا فى التعبئة، وتقديم الخدمات اللوچستية. ظهرت حركات تحمل اسم «Opter» فى صربيا، و«Kmara» فى چورچيا، و«Pora» فى أوكرانيا. فى صربيا ــ على سبيل المثال ــ خططت المعارضة لمظاهرات شعبية حاشدة، بالتعاون مع Opter ومنظمات المجتمع المدنى بلغ عدد المنخرطين فيها نحو مليون شخص، وعندما اقتربوا من العاصمة، تبينت قوات الشرطة أن من الصعب عرقلة سيرهم، ولا سيما أن بعضا منهم كانوا مسلحين فامتنعت عن مواجهتهم بالعنف. فى يوم ٥ أكتوبر ٢٠٠٠م فى غضون ساعات قليلة استولت المعارضة على مبنى البرلمان، وفى اليوم التالى مباشرة استقال سلوبودان مليسوڤيتش.

٧ـ انقسام وسط قوات الأمن

العامل السابع، والأخير، فى نموذج مايكل ماكفول فى تحقيق التحول الديمقراطى

فى إطار الموجة الرابعة هو ضرورة وجود انقسام فى صفوف من يحملون السلاح على نحو لا يجعلهم يتجهون لقمع المتظاهرين ضد تزوير الانتخابات. فى صربيا ـ على سبيل المثال ـ أصدر مليسوفيتش أوامره لقوات الأمن بقمع المتظاهرين من حركة Opter إلا أن الكثير من قيادات الأمن رفضت ذلك، ومع تزايد أعداد المتظاهرين على نحو غير مسبوق بدا واضحا أن أيام مليسوفيتش فى سبيلها للانقضاء. فى أوكرانيا أثمرت الاتصالات بين قيادات المعارضة وقيادات المخابرات إلى إغلاق السبيل أمام أية مواجهات دموية مع المتظاهرين، الذين وضعوا الفتيات حاملات الورد فى صفوفهم الأولى، وهو ما جعل قوات الأمن تمتنع عن استخدام القوة. فى چورچيا عندما احتج المتظاهرون على حكم شيفرنادزه، واقتحموا البرلمان، مطالبين ليس فقط بالاعتراف بنتيجة الانتخابات البرلمانية، ولكن أيضا برحيل شيفرنادزه ذاته، امتنع الأخير عن استخدام القوة الخشنة فى مواجهة المتظاهرين حفاظا على صورته «الإصلاحية» المأخوذة عنه إبان الدور الذى لعبه إلى جوار الرئيس ميخائيل جورباتشوف فى أواخر عهد الاتحاد السوفييتى.

❁ ❁ ❁